



## د. يوسف القرضاوي يكتب: التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا



الجمعة 12 فبراير 2021 م 01:11

رأيت إلى الأرض الخاسعة الهاameda، ينزل الله عليها الماء، فتهتز وتربو وتحيا بعد موتها، وتنبت من كل زوج بهيج!

ذلك كانت الأمة الإسلامية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري، وقبل ظهور حركة الإخوان المسلمين: دُمرت الخلافة، وهي آخر مظاهر للتجمع تحت راية العقيدة الإسلامية، وُمْزَق الوطن الإسلامي شر ممزق بين براثن المستعمرين، من بريطانيين وفرنسيين وغيرهم، حتى هولندا التي لم تكن تتجاوز بضعة ملايين، كانت تحكم نحو مائة مليون في أندونيسيا! وُعَطَّلت أحكام الإسلام، وأخذ القرآن مهجوراً، وسيطرت القوانين الوضعية والتقاليد العربية، والقيم الأجنبية على حياة المسلمين، وبخاصة الطبقة المثقفة منهم، نتيجة لهيمنة الاستعمار الكافر على أرقة التعليم والتوجيه والتأثير، فتحرّجت أجيال، تحمل أسماء إسلامية، وعقولاً أوروبية.

وانضم هذا الفساد الذي وفَدَ مع الاستعمار الدخيل، إلى الفساد الذي خلَّفَته عصور الانحطاط والتخلف، فاردأه الطين بلة، والداء علة. وشاء الله الذي تكَفَّلَ بحفظ القرآن، وبقاء الإسلام، وإظهاره على الدين كله، أن يجدد لهذا الدين شبابه، ويعيد لجسد هذه الأمة الهامد رُوحه وحياته من جديد. فكانت دعوة الإخوان المسلمين، وكان حسن البنا مؤسس هذه الحركة «الكبرى»، التي مضى عليها خمسون عاماً، تركت فيها « بصمات » وأثراً في كل مجال، وفي كل مكان، داخل العالم الإسلامي وخارجـه.

ولست أكتب هذه الصحف مؤرّخاً لحركة الإخوان ومبليغ تأثيرها في الحياة المصرية والعربية والإسلامية، فهذا جهد ينبع به فرد، مهما تكن قدرته ووسائله. وإنما هو واجب الجماعة الذي فرّطت فيه حتى اليوم، وإن كانت الضربات المتلاحقة التي أصابت الجماعة في كل العهود، يجعل لها بعض العذر لا كُلّه.

إنما أكتب هنا عن جانب واحد من جوانب هذه الحركة الضخمة، وهو: جانب التربية، كما فهمه الإخوان من الإسلام، وكما طلبّوه، ولست أحارّل هنا الاستقصاء والإحاطة، وإنما أكتفي بإبراز المعلم، وإعطاء الملامح، التي تكفي لإيضاح فكرة الجماعة عن التربية وجهودها في ممارستها، ونقلها إلى الواقع حتّي يتمثل في بشر أحياء.

ولا يخفى على دارس أو مراقب أن حركة الإخوان تمثل - في الدرجة الأولى - مدرسة نموذجية ناجحة للتربية الإسلامية الحقة، وأن أهم ما حققته هو تكوين جيل مسلم جديد، يفهم الإسلام فهـما صحيحاً، ويؤمن به إيماناً عميقاً، ويعمل به في نفسه وأهله ويحـادـلـ لإعلـاءـ كلمـتهـ، وتحـكـيمـ شـريـعتـهـ، وتوحـيدـ أمتـهـ.

وقد ساعد على هذا النجاح جملة عوامل:

1- إيمان لا يتزعزع بأن التربية هي الوسيلة الفدّة لـتغيير المجتمع، وبناء الرجال، وتحقيق الآمال، وكان إمام الجماعة الشهيد حسن البنا يعلم أن طريق التربية بعيدة الشُّفَقَة، طوبلة المراحل، كثيرة المشاكل، ولا يصبر على طولها ومتاعبها إلا القليل من الناس من أولي العزم، ولكنه كان يعلم كذلك علم اليقين، أنها وحدها الطريق الموصولة، لا طريق غيرها، فلا بديل لها، ولا غنى عنها؛ وهي الطريق التي سلكها النبي صلى الله عليه وسلم، فكُوئن بها الجيل الريادي النموذجي، الذي لم تر عين الدنيا مثله، والذي تولى بعد ذلك تربية الشعوب وقيادتها إلى الحق والخير.

2- منهاج للتربية محدّد الأهداف، واضح الخطوات، معلوم المصادر، متكامل الجوانب، متنوع الأساليب، قائم على فلسفة بيّنة المفاهيم، مستمدّة من الإسلام دون سواه.

3- جو جماعي إيجابي هيّأته الجماعة، من شأنه أن يعين كلّ أخ مسلم على أن يحيى حياة إسلامية عن طريق الإيحاء والقدوة، والمشاركة الوجданية والعملية، والمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قويّ بجماعته، فالجماعة قوة على الخير والطاعة، وعصمة من الشر والمعصية، وفي الحديث: «يد الله مع الجماعة»، « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».

4- قائد مربٌّ بفطرته، وبثقافته، وبخبرته. وهبه الله شحنة إيمانية نفسية غير معتادة، أثّرت في قلوب من اتصل به، وأفاض من قلبه على قلوب من حوله، وكان أشبه بـ«المولد» أو «الدينامو» الذي ملاً منه الآخرون «بطاريات» قلوبهم. والكلام إذا خرج من القلب دخل القلوب بغير استئذان، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان. فصاحب القلب الحي هو الذي يؤثّر في مستمعيه ومربيه، أما صاحب القلب الميت؛ فلا يستطيع أن يحيي قلب غيره، فغاية الشيء لا يعطيه، وليس النهاية كالثقل.

5- عدد من المربيين المخلصين، الأقوياء الأمانة، آمنوا بطريقة القائد، ونسجوا على منواله، أثروا في تلاميذهم، ثم أصبح هؤلاء أساند له من بعدهم .. وهكذا.

ولست أعني بالمربيين هنا: خريجي المعاهد العليا للتربية، أو حملة الماجستير والدكتوراه فيها، وإنما أعني أناساً ذوي «شحنة» عالية من الإيمان، وقوة الروح، وصفاء النفس، وصلاحية الإرادة، وصلاحة العاطفة، وسعة العاطفة، والقدرة على التأثير في الآخرين .. وربما كان أحد هؤلاء مهندساً أو موظفاً بسيطاً أو تاجراً أو عاملاً، فمن لا علاقة له بدراسة أصول التربية أو مناهجها.

6- وسائل مرتنة متنوعة، بعضها فردي، وبعضها جماعي، بعضها نظري، وبعضها عملي، بعضها عقلي، وبعضها عاطفي، وبعضها إيجابي، وبعضها سلبي، من دروس إلى خطب، إلى محاضرات، إلى ندوات، إلى أحاديث فردية، ومن شعارات تحفظ، إلى هنافات تدوّي، إلى أناشيد تؤثّر بكلماتها ولحنها ونغمتها.. ومن لقاءات دورية لمجموعات مختارة في البيوت على القراءة والثقافة والعبادة والأخوة، سميت كل مجموعة منها «أسرة» إيحاءً بمعنى الألفة والمودة بين أبناء العائلة الواحدة، إلى لقاءات أخرى في شعبة الجماعة غالباً، موعدها الليل، تتعدد فيها العقول بالثقافة، والقلوب بالعبادة، والأجسام بالرياضة، وسميت هذه «الكتيبة»، إيحاءً بمعنى الجهاد، إلى غير ذلك من الوسائل والطرق التي تهدف إلى بناء الإنسان المسلم المتكامل.

وكل تربية إنما تتكثّف بحسب العاية منها، حتى في الحيوانات، فالبقرة التي تربّى للبن، غير التي تربى للحم، غير التي تربى للحرث، وكذلك الإنسان والتربية، ف التربية الإنسان الوجودي، غير تربية الإنسان الشيوعي، وهذا غير تربية الإنسان البورجوازي، أو الرأسمالي، وكلها غير تربية الإنسان المسلم. وتربية المسلم التقليدي غير تربية المسلم الإيجابي.. تربية المسلم في مجتمع يحكمه القرآن، وتسيطر عليه تعاليم الإسلام، غير تربية المسلم في مجتمعات تصرّط فيها الجاهلية والإسلام، ويتنازعها الكفر والإيمان، والتحلل والالتزام.

أجل.. إن تربية المسلم الذي يكتفي من الإسلام بالصلوة والصيام والذكر والدعاء، وإذا ذكر أمامه حال الإسلام والمسلمين اقتصر على الحوقلة والاسترجاع، غير تربية المسلم الذي يغلي صدره غيرة على الإسلام، كما يغلي القذر فوق النار، ويذوب قلبه أسى على المسلمين كما يذوب الملح في الماء، ثم يحول ذلك الأسى وتلك الغيرة إلى قوة دافعة للعمل، وانطلاقه باعثة على التغيير.

هذا هو المسلم المنشود، الذي لا يستسلم للواقع، بل يعمل على تغييره كما أمر الله، ولا يعتذر بالقضاء والقدر، بل يؤمن بأنه هو قضاء الله الغالب، وقدرة الذي لا يُزدّ. إنه المسلم الذي يعمل لإقامة رسالة، وبناء أمّة، وإحياء حضارة. «رسالة امتدت طولاً حتى شملت آماد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمّقاً حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة»(1).

وأمة خصها الله بخير كتاب أنزل، وأعظم نبى أرسل، جعلها خير أمّة أخرجت للناس، وجعلها أمّة وسطًا في كل شيء، وأهّلها للأستاذية والشهادة على الناس.

وحضارة رياضية إنسانية عالمية أخلاقية، جمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين المادة والروح، ووارنت بين الدنيا والآخرة، وحفظت للإنسان خصائص الإنسان، وكرامة الإنسان.

كانت تربية هذا المسلم هي المهمة الأولى لحركة الإخوان؛ لأنّه هو وحده أساس التغيير، ومحور الصلاح والإصلاح. ولا أمل في استئناف حياة إسلامية، أو قيام دولة إسلامية، أو تطبيق قوانين إسلامية، بغيره.

وكان للتربية الإسلامية في فهم الإخوان وتطبيقهم خصائص بارزة، ومميزات ظاهرة أهمّها: التأكيد على الرياضية.. التكامل والشمول.. الاعتدال والتوازن.. الإيجابية والبناء.. الأخوة والروح الجماعية.. التمييز والاستقلال.

(1) من كلمات الشهيد حسن البنا في مقاله «من وحي درء» بجريدة الإخوان المسلمين اليومية.

